٤- فصل

خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان[١]

[٣٣] **فمما يذكر من محاسنه**[٢] : أن رجلا دخل عليه ، فقال : ياأمير المؤمنين أنشدك الله والأذان ، فقال سليمان : أما أنشدك الله فقد عرفناه فما الأذان ؟ قال : قوله تعالى ﴿**فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين**﴾ [الأعراف: ٤٤] فقال سليمان : ما ظلامتك؟ قال : ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان ؛ فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الأرض وقال : والله لارفعت خدى من الأرض حتى يُكتبَ له بِردِ ضيعته فكتب الكتاب وهو واضع خده على الأرض . ولما سمع كلام ربه الذى خلقه وخَوّلَه فى نعمه ، خشى من لعن الله وطرده ؛ رحمه الله .

قيل : إنه أطلق من سجن الحجاج ثلاثمائة ألف نفس مابين رجل وامرأة، وصادر آل الحجاج ، واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا مشيرا، وكان شرها فى الأكل نَكّاحا . قال بن خلكان فى ترجمته[٣]: إنه

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ولى الخلافة يوم وفات أخيه الوليد (٩٦هـ) وكان بالرمله ، فلم يتخلف أحد عن مبايعته . أطلق الأسرى وأخلى السجون ، وعفا عن المجرمين ، وجهز جيشا كبيرا وسيره فى السفن بقياده أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية . وفى عهده فتحت جرجان، وطبرستان . وتوفى فى دابق ، بين حلب والمعرة . وكانت مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر ، ت[٩٩هـ- ٧١٧م] .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١٠١) .

(٣) انظر : وفيات الأعيان (٢/٤٢٠ رقم ٢٧٩) .

كان يأكل كل يوم نحو مائة رطل شامى . قال محمد بن سيرين[1] : رحمه الله سليمان افتتح خلافته بخير وختمها بخير : افتتحها بإقامة الصلاة لمواقيتها الأولى ، وختمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

[٣٤] **وقال أبو سويد حدثنى أبو زيد الأسدى قال**[2]: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس فى إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر فى وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت. فقلت : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وكان مطرقا فرفع رأسه ، وقال : ياأبا زيد فى مثل هذا الحين تصالحنا ، فقلت : أصلح الله الأمير أو قامت القيامة ؟ قال: نعم على أهل المحبة ؛ ثم أطرق مليا ورفع رأسه ، فقال : يا أبا زيد مايطيب فى يومنا هذا؟ قلت : أعز الله الأمير؛ قهوة حمراء فى زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء ملفوفة لفاء أشربها من كفها وأمسح فمى بخدها. فأطرق سليمان مليا لايرد جوابا ، تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق. فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه ، فقال : يا أبا زيد حضرت فى يوم انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك، والله لأضربن عنقك أولتخبرنى ما آثار هذه الصفة من قلبك ؟ قلت : نعم أيها الأمير كنت جالسا على باب أخيك سعيد بن عبد الملك ، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب

---

(١) محمد بن سيرين البصرى الأنصارى : إمام عصره ، وحافظ وقته من كبار التابعين ، ومن المعبرين للرؤيا ، ت[١١٠هـ] .

(٢) انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (٦٦/٦) .

إسكندرانى يبين منه بياض ثدييها وتدوير سرتها ونقش تكتها ، وفى رجليها نعلان صراران ، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان حقويها[1] ، ولها صدغان كأنهما نونان ، وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحرا ، وأنف كأنه قصبة بلور ، وفم كأنه جرح يقطر دما ، وهى تقول : عباد الله من لى بدواء من لا يسلو ، وعلاج من لا يسمو ، طال الحجاب وأبطأ الجواب ، فالقلب طائر ، والعقل عازب ، والنفس والهة ، والفؤاد مختلس ، والنوم محتبس ، رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا وماتوا كمدا[2]، ولو كان إلى الصبر حيلة وإلى العزاء سبيل لكان أمرا جميلا ، ثم أطرقت مليا ورفعت رأسها ، فقلت : أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية سماوية أم أرضية فقد أعجبنى ذكاء عقلك وأذهلنى حسن منطقك ، فسترت وجهها بكفيها كأنها لم ترنى ، ثم قالت : اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد والمقاساة لصب معاند ثم انصرفت ، فوالله -أصلح الله الأمير- ماأكلت طيبا إلا غصصت به لذكرها، ومارأيت حسنا إلا سمج فى عينى لحسنها . قال سليمان : ياأبا زيد كاد الجهل يستفزنى والصبا يعاودنى والحلم يعزب عنى لشجو ما سمعت اعلم ياأبا زيد تلك الجارية التى رأيتها هى الذلفاء[3] التى قيل فيها :

إنما الذلفاء ياقوتة قد أخرجت من كيس دهقان[4]

---

(١) الحَقْو : الخصر .

(٢) الكمد : الحزن والغم .

(٣) الذلفاء : جارية ابن طَرخْان مغنية شاعرة اشتراها سليمان بن عبد الملك بعد أن صارت إليه الخلافة . انظر : اعلام النساء (٤٢٧/١) .

(٤) الدِّهْقان : تاجر الأحجار الكريمة .

شراؤها على أخى بألف ألف درهم وهى عاشقة لمن باعها والله إن مات إنما يموت بحبها ولايدخل القبر إلا بغصتها وفى الصبر سلوة وفى توقع الموت هيبة ، قم يا أبا زيد فى دعة الله ، ياغلام ثقله ببدرة فأخذتها وانصرفت .

قال : فلما أفضت الخلافة له صارت إليه الذلفاء فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة وضرب فى روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها من أنواع الزهر من أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغن يقال له سنان كان به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه ، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتنزه فلم يزل فى أكل وشرب وسرور وأتم حبور إلى أن انصرف شيء من الليل فذهب إلى فسطاطه وذهب سنان أيضا فنزل به جماعة من إخوانه ، فقالوا له : نريد قرى[1] أصلحك الله . قال : وماقراكم قالوا : أكل وشرب وسماع قال : أما الأكل والشراب فمباحان لكم وأما السماع فقد عرفتم غيرة أمير المؤمنين ونهيه إلا ما كان فى مجلسه قالوا : لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا قال : فاختاروا أصواتا أغنيكموه ، قالوا :غننا بصوت كذا وكذا .قال: فشرع يتغنى بهذه الأبيات:

محبوبة سمعت صوتى فأرقها ... من آخر الليل لما نبه السحر
فى ليلة البدر مايدرى مضاجعها ... أوجهها عنده أم عنده القمر
لم يحجب الصوت حراس ولاغلق ... فدمعها الطروق الصوت ينحدر
لو مكثت لمشت نحوى على قدم ... وكاد من لينها للمشى ينفطر

---

(١) القِرى : مايقدم للضيف .

قال : فسمعت الذلفاء صوت سنان فخرجت إلىصحن الفسطاط فجعلت لاتسمع شيئا من حسن خلق ولطافة إلا رأت ذلك كله فى نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكنا من قلبها فهملت عيناها وعلا نحيبها ؛ فانتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحالة فقال لها : ماهذا ياذلفاء ؟ فقالت :

ألارب شخص رائع ومشوه ... قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله ... إلى أمه يعزى معا وإلى عبد

فقال سليمان : دعينى من هذا الحال فوالله لقد خامر قلبك منه ياغلام علىَّ بسنان ، فدعت الذلفاء خادما لها وقالت له : إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرته فلك عشرة آلاف درهم ، وأنت حر لوجه الله تعالى ؛ فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين ؛ فلما أتى به قال : ياسنان ألم أنهك عن مثل هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين حملنى الشمول وأنا عبد أمير المؤمنين وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عنى ، فليفعل قال : قد عفوت عنك ، ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل ودقت له الحجرة ، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة ، وأن الرجل إذا تغنى صغت إليه المرأة ، وإياك والعود إلى ماكان منك فيطول غمك ، انتهى[1] .

[٣٥] **وقيل** : كان فى أيام سليمان رجل يقال له : خزيمة بن بشر من بنى أسد كانت له مروءة ظاهرة ونعمة حسنة وفضل وبر بالإخوان فلم يزل على تلك الحالة حتى قعد به الدهر فاحتاج إلى إخوانه الذين كان

---

(١) انظر : تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ، لداود الأنطاكى ص ٢٨٦ .

يتفضل عليهم وكان يواسيهم فواسوه حينا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال : ياابنة عمى قد رأيت من إخوانى تغيرا وقد عزمت على أن ألزم بيتى إلى أن يأتينى الموت ، فأغلق بابه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقى حائرا .

وكان يعرفه عكرمة الفياض الربعى متولى الجزيرة وإنما سمى بذلك لأجل كرمه ، فبينما هو فى مجلسه إذ ذكر خزيمة بن بشر ، فقال عكرمة الفياض : ماحاله فقالوا : قد صار إلى أمر لايوصف ، وإنه أغلق بابه ولزم بيته قال : أفما وجد خزيمة بن بشر مواسيا ولامكافئا ؟ فقالوا : لا ، فأمسك عن الكلام . ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها فى كيس واحد ثم أمر بإسراج دابته وخرج سرا من أهله ، فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة ، فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فدفعه بنفسه ، فخرج إليه خزيمة فناوله الكيس، وقال : أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه عن يده ، ثم أمسك بلجام الدابة وقال له : من أنت جعلت فداك ؟ فقال له عكرمة : ياهذا ماحنتك فى هذا الوقت والساعة وأريد أن تعرفنى ، قال : فما أقبله إلا إن عرفتنى من أنت ، فقال : أنا جابر عثرات الكرام ، قال : زدنى قال : لا، ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس على ابنة عمه فقال لها : أبشرى فقد أتى الله بالفرج والخير ولو كانت فلوسا فهى كثيرة قومى فاسرجى قالت : لاسبيل إلى السراج فبات يلمسها بيده فيجد خشونة الدنانير ولايصدق وأما عكرمة فإنه رجع إلى منزله فوجد امرأته قد فقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه فأنكرت ذلك وارتابت وقالت له : والى الجزيرة يخرج بعد هدو من الليل منفردا من غلمانه فى سر من أهله إلى

زوجة أو سرية، فقال: اعلمى أنى ماخرجت فى واحدة منهما ، قالت : فخبرنى فيم خروجك. قال: يا هذه ماخرجت فى هذا الوقت وأنا أريد أن يعلم بى أحد ، قالت : لابد أن تخبرنى قال : تكتمينه إذاً ؟ قالت : فإنى أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها وماكان من قوله ورده عليه ، ثم قال : أتحبين أن أحلف لك أيضا ؟ قالت : لا فإن قلبى قد سكن وركن إلى ماذكرت وأما خزيمة فلما أصبح صالح الغُرماء ، وأصلح ماكان من حاله .

ثم إنه تجهز يريد سليمان بن عبد الملك وكان نازلا يومئذ بفلسطين؛ فلما وقف ببابه واستأذن دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهورا بمروءته وكرمه وكان سليمان عارفا به فأذن له ؛ فلما دخل سلم عليه بالخلافة فقال له سليمان بن عبد الملك: ياخزيمة ماأبطأك عنا؟ قال: سوء الحال قال : فما منعك من النهضة إلينا ؟ قال : ضعفى ياأمير المؤمنين. قال : فبم نهضت إلينا الآن ؟ قال :لم أعلم ياأمير المؤمنين إلا أنى بعد هدو من الليل لم أشعر إلا ورجل يطرق الباب وكان من أمره كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها ؛ فقال سليمان : هل تعرف الرجل فقال خزيمة : ماعرفته ياأمير المؤمنين لأنه كان متنكرا ، وماسمعت من لفظه إلا أنى جابر عثرات الكرام . قال : فتلهب وتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال : لوعرفناه لكافأناه على مروءته ، ثم قال : علىّ بقناة فأتى بها؛ فقعد لخزيمة بن بشر المذكور على الجزيرة عاملا عوضا عن عكرمة الفياض فخرج خزيمة طالبا الجزيرة .فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلما على بعضهما ثم سارا جميعا إلى أن دخلا البلد، فنزل خزيمة فى دار الإمارة ، وأمر أن يأخذ لعكرمة كفيل وأن يحاسب فحوسب فوجد عليه فضول أموال كثيرة ، فطالبه بأدائها ، قال : مالى إلى شىء من

ذلك سبيل ، قال: لابد منها ، قال: ليست عندى فاصنع ماأنت صانع ، فأمر به إلى الحبس ثم أنفذ إليه من يطالبه فأرسل يقول : إنى لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ماشئت ، فأمر أن يكبل بالحديد فأقام شهرا كذلك أو أكثر فأضناه[1] ذلك وأضر به .

وبلغ ابنة عمه خبره، فجزعت واغتمت لذلك ثم دعت مولاة لها وكانت ذات عقل ومعرفة وقالت لها : امضى الساعة إلى باب هذا الأمير خزيمة بن بشر ، وقولى عندى نصيحة فإذا طلبت منك فقولى : لاأقولها إلا للأمير خزيمة بن بشر ، فإذا دخلت عليه فسليه أن يخليك ، فإذا فعل ذلك فقولى : ماكان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك كافأته بالحبس والضيق والحديد ففعلت الجارية ذلك ؛ فلما سمع خزيمة كلامها نادى برفيع صوته وا سوأتاه ، وإنه لهو قالت : نعم فأمر لوقته بدابته فأسرجت وبعث إلى وجوه أهل البلد فجمعهم إليه وأتى بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل خزيمة ومن معه فرآه قاعدا فى قاعة الحبس متغيرا أضناه الضرو الألم وثقل القيود ، فلما نظر إليه عكرمة وإلى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فأقبل خزيمة حتى أكب على رأسه فقبله فرفع عكرمة إليه رأسه قال : ما أعقب هذا منك ؟ قال : كريم فعالك وسوء مكافأتى يغفر الله لنا ولك ثم أتى بالحداد ففك القيود عنه وأمر خزيمة أن توضع القيود فى رجل نفسه ، فقال عكرمة : ماذا تريد فقال : أريد أن ينالنى من الضر مثل مانالك ، فقال : أقسم عليك بالله لاتفعل ، فخرجا جميعا حتى وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف عنه، فقال : ماأنت ببارح ، قال : وماتريد ، قال :

---

(١) أضناه : عاناه .

أغير حالك وإن حيائى من ابنة عمك أشد من حيائى منك ، ثم أمر بالحمام فأخلى ودخلاه معا فقام خزيمة وتولى أمره وخدمه بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمله وحمل معه كثيرا ، ثم سار معه إلى داره واستأذنه فى الاعتذار إلى ابنة عمه فاعتذر إليها ، وتذمم من ذلك . قال : ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك، وسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك ، فدخل الحاجب فأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك ، وقال : والى الجزيرة يقدم بغير أمرنا ماهذا إلا لحادث عظيم فلما دخل قال له : قبل أن يسلم عليه ماوراءك ياخزيمة ؟ قال: الخير ياأمير المؤمنين . قال : فما الذى أقدمك ؟ قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك به لما رأيت من تلهفك وتشوقك إلى رؤيته ، قال : ومن هو ؟ قال : عكرمة الفياض ، قال : فأذن له بالدخول فدخل وسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال عكرمة : ماكان خيرك له إلا وبالا عليك ؛ ثم قال سليمان : اكتب حوائجك كلها وماتحتاج إليه فى رقعة ففعل ذلك ، فأمر بقضائها من ساعته وأمر له بعشرة آلاف دينار وسفطين ثيابا ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، وقال له : أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال : بل اردده إلى عمله ياأمير المؤمنين ثم انصرفا من عنده جميعا ولم يزالا عاملين لسليمان مدة خلافته والله أعلم .